

بثينة وأبو مصعب وأبوات فلسطين!

أحمد الجار الله - السياسة

٢٠٠٤/٥/١٣ أبو مصعب الزرقاوي، «المجاهد» في «سبيل الله»، يحز رقبة إنسان أميركي عادي يعمل في مشاريع إعادة إعمار العراق، ويذبحه من الوريد إلى الوريد، ويفصل رأسه عن جسده، ثم يحمل الرأس المقطوع ويلتقط لنفسه صورة تذكارية، حتى لا ينسى تاريخ البشرية ان يكتب المجلدات عن «ملاحمنا الجهادية»، وعن قدراتنا فقط في الانتصار على العزل المساكين، من طالبي الرزق والساعين في مناكب الأرض.

أبطال «الجهاد الإسلامي» في غزة يتلثمون ويتظاهرون بالسلح أمام عتبات منازلهم، ويدلون بالبيانات «الجهادية» وأمامهم رأس جندي إسرائيلي مقطوع، وينادون مبكرين على صفقة سياسية قوامها مبادلة الأشلاء بالسجناء، وما دروا أنهم يتاجرون برفات الموتى. الدكتورة بثينة شعبان، وزيرة المغتربين السوريين، نكتة ب إعلاناً عن اشمئزازها من فظائع التعذيب الأميركي ضد أبناء جلدتنا العراقيين في سجن أبو غريب، وكأذنها وزيرة في حكومة السويد أو سويسرا، وليست وزيرة في حكومة عربية، تريد بكتابتها ان تزيّف خصائصها التي نعرف، وفضاعاتها ضد خصومها، وتعذيبها للمعتقلين السياسيين في سجونها، وهي فضاعات تزكم الأنوف وتثير اشمئزاز العالم.

أبو مصعب وأبوات الإسلام الفلسطينيين أهدوا العالم يوم تقطيع رؤوس بصورة موغلة في التتكيل والال انسانية. وبثينة شعبان أعطت العالم احتفالية دموع تماسيح قل نظيرها، خصوصاً وانها ذرفت هذه الدموع وهي رابضة فوق جثث وجراح ضحايا نظامها المعذبين في سجون صيدنايا والمزة وتدمر، وفوق تراب مقابر بعضهم الجماعية، التي احتوتهم أحياء اشفاقاً على يد الجلاد من ضرب السياط.

هذه المشاهد المتجردة من العقلانية، والموغلة في الوحشية الجبانة، كيف تحتسب، وبأي مقياس، وما هي مستويات التعبير التي تنتمي اليها، وما هو مكانها في معايير تقدم الانسان ومعارفه؟ ربما لا جواب، سوى ان هذا المشهد المصبوغ بلون الدم ولون العرب، ينتمي الى بدائية الانسان الاولى والى ثقافة الغابنة وسكانها الوحوش. أما ان يقال ان أبو مصعب، وأبوات الاسلام الفلسطينيين وبثينة شعبان يحاربون أميركا، ويفضحون جرائمها في سجن أبو غريب، وينتقمون للضحايا، ويقاتلون اسرائيل، فهو قول مردود من أساسه، بدليل ان ما قام به هؤلاء الأشاوس كان بمثابة عطية من السماء لادارة الرئيس بوش، كي تخرج من العواقب السياسية لفضائح التعذيب، وتضمن التجديد لرئيسها في البيت الأبيض، وكان بمثابة حجة اضافية لشارون بأن من يتاجر بالاشلاء لا يستحق دولة، وكان بمثابة تبرير منطقي لفرض العقوبات الاقتصادية، وكان بمثابة دفعة هائلة من القوة لمواصلة الحرب على الارهاب، وكأنها بدأت لتوها، من افغانستان جديدة الى عراق جديد.

بعد مذبحه أبو مصعب الزرقاوي لن يتكلم أحد، لا في أميركا ولا في غيرها، عن فضائح التعذيب في «أبو غريب»، بل عن أبو مصعب الذي يذبح الانسان كما تذبح النعاج، وعن أبوات فلسطين الذين يتباهون بالتصوير أمام رأس بشري مقطوع، وبأيد تلوح بالاشلاء الطرية التي تنز دماً، المفروض ان لونه الواحد هو الذي يجمع البشرية ويوحدها. أما الدكتورة بثينة شعبان، «المشمئزة» من تعذيب العراقيين فانها يجب ان تكون آخر من يشمئز، إذ الوان العذاب في سجون نظامها التي هي جزء منه وتخدم فيه، لا حصر لها ولا عد، بل ان فنون العذاب والتعذيب لا يرقى الى فضاعاتها الا ما كان يرتكبه هونيكر، حاكم المانيا الشرقية السابق، ضد

خصومه السياسيين، وما كان يرتكبه تشاوشيسكو ضد مواطنيه في رومانيا السابق التي ارسله فيها مواطنوه الى عدالة الموت.

لقد كنا نبالغ في الكلام عن فضائح التعذيب في أبو غريب، وفي قصدنا مضاعفة الضغط على الأميركيين، ومحاصرتهم، واحراجهم، وادعاء مقاومتهم ومحاربتهم، إلا ان هذا الكلام بعد ان وصل الى حد الذبح وقطع الرؤوس، أصبح وبالاً علينا، ووصمة عار في جبين سمعتنا بين البشر. كنا نحاول تأليب العالم ضد مرتكبي عمليات التعذيب في «أبو غريب» ولم نجرؤ على الاقتراب من الادارة الأميركية، لأن لها الفضل في الكشف عن الفضيحة، وكانت لديها الجرأة الأدبية الكافية للاعتذار عنها، وكان بإمكانها ان تسكت، أو تتكر، كما هو دأب بعض أنظمتنا العربية، التي تعذب، وتغتال، وتدفن الناس أحياء وتنتزع أطرافهم، وتذبيهم في أحواض الأسيد، وبعد ذلك تظهر على العالم ببراءة الأطفال، وبأجنحة الملائكة، وسيلتها الانكار وأدواتها الكذب.

هل بعد كل هذه المهازل بمقدور أحد منا ان يدافع عن نفسه، أو يشمئز من أعمال غيره، بينما أعماله هي الأذى بالاشمئزاز.. يرمي بيوت الأميركيين بالحجارة وبيته أكثر هشاشة من الزجاج؟ بوش الآن، استعداد البريق لسياسته ونهجه ولحروبه على الارهاب، بسبب هدايانا المجانية له. وحين يفرض عقوبات اقتصادية على سورية لا نرى مسؤولاً سورياً متفقاً مع الآخر على موقف واحد.. منهم من يقول ان العقوبات رمزية، وآخر يقول ظالمة، وثالث يقول انها لن تؤثر، ورابع يقول اننا سنواجهها ووراؤنا ظهر عربي قوي، وحتى في موضوع فرض العقوبات الخطير لا يحسن مسؤول سوري صواب القراءة، بل خيبة الاستكبار، ولا يتعلم مسؤول سوري من اخطاء سواه، ولا يعترف مسؤول سوري بأنه ضعيف، وغير منزه عن فضائح التعذيب، وارتكاب جرائم الاغتيل، بما فيهم الدكتوراة بثينة شعبان وزيرة المغتربين السورية، التي تشمئز من فضائح التعذيب، وتشجب الرسالة الأميركية التي لا تساوي بين حياة مواطن عربي وحياة انسان عربي، وترى القشة في عين سواها ولا ترى الجبل في عينها، وتصاب فجأة بفقدان الذاكرة وترى في سجون نظامها فنادق فخمة من درجة خمس نجوم!!